رَوائِع تراث الزَّيديّة

المُعجز الباهِر في العدل والتوحيد

للإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم العَياني
عليهما السّلام (ت ٤٠٤هـ)

مُنتزع من مَجمُوع كُتبه ورسائِله

تحقيق

إبراهيم يحيى الدّرسي

منشورات مركز أهل البيت (ع) للدراسات الإسلامية

كتاب المعجز الباهر في العدل والتوحيد لله العزيز القاهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين[1]، وحسبنا الله ونعم الوكيل، أسأل الله التوفيق لهدايته، وأسترشده إلى طاعته، وأسأله النجـاة برحمتـه، وأعوذ به من خذلانه، وأهرب إليه من عصيانه، وأومن به وأتوكل عليه، وأفوض أمـري جميعه إليه، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن وعده ووعيده حق، وقوله سبحانه صدق، وأنه عدل في جميع أفعاله، وصادق في جميع أقواله.

وبعد يا أخي فقد سألت عن أفضل ما سأل عنه سائل، أو قال به من الناس قائل: عن الدليل على الله إلهنا وربنا وخالقنا والرد على الزنادقة الملحدين، الكفرة الفجرة الجاحدين، أهل الحيرة والعمى المتلددين الضالين، البكم العمي أشباه النعايم العجم، التي لا تعقل من الأمور إلا ما رأت وجاهرت، ولا تعرف إلا ما شاهدت ونظرت، ولا تميز إلا ما سمعت وأبصرت، ولا تفرق بين الباطل والحق، ولا تميز المحال من الصدق، وأولئك فهم أكـثر الأنام، وأشباه سائمة الأنعام.

فكان مما سألت عن الدليل على هذه الفضائية الكفرة، الأنجاس الأرجاس الفجرة، وقد ظفرت إن شاء الله بما طلبت، ووفقت بمن الله إلى ما سـألت وأردت، فأسـأل الله أن يزيدك إلى هداك هدى، وأن يجعلك راشداً وسديداً، فقليل من الناس من يسـتدل علـى الحق بأدلة، ويجتهد في فكاك الشبه المضلة، إذ كانوا عن الله ذاهلين، ولسـبب النجـاة جاهلين، ولو طلبوا ذلك من أهله لوجدوه، ولو سألوا عن مغرسه لما عدموه.

---

[1] - من هنا إلى باب الرد على من جحد الله وقال بقدم الهواء وغيره من الأشياء سـاقط مـن (أ) وزيادة من (ب).

[الرد على الفضائية في قولهم بقدم الهواء]

واعلم هداك الله وألهمك الله لرشدك وهداك وسددك، أن الفضائية اللُّعَناء، أهل الكفر والحيرة والعمى، اختلفوا بغير برهان، ولا هداية ولا بيان، فتكلمت كل فرقة بوحي شيطانها، وقالت في الله بخذلانها، وتكمهها وعصيانها؛ فأجمعوا كلهم على الجهل، وتكلموا بالمحال والخبل، فزعموا -لعنهم الله- أن الفضاء الهواء المكان الذي فيه الأشياء قديم.

ثم اختلفوا بعد ذلك فيه، فقال أكثرهم : هو شيء قديم ليس بخالق ولا مخلوق ، إلا الفرق الثلاث المشبهة الهلاك فزعمت فرقتان من هذه الثلاث أنه هو الله العلي الأعلى، تبارك الله عن قولهم وتعالى.

ثم اختلفتا في ذلك في عمايتهما، وتكمهما في جهالتهما، فزعمت إحداهما أنه جسم طويل عريض عميق تحويه الجهات الست، وهو جسم لا كسائر الأجسام المجسمات، تعالى عن ذلك رب الأرضين والسماوات.

وزعمت الفرقة الثانية : أنه ليس بجسم من الأجسام وأنه ليس له نهاية ولا له حد، ولا له غاية ولا أمد.

إلا الفرقة الثالثة فهي من الزنادقة فجحدوا وأبطلوا صنع الله له وهم استحقوا في حكم الله العذاب، وخرجوا من الإسلام، لجحدهم لصنع ذي الجلال والإكرام، وسنذكر إن شاء الله فساد ما نطقوا به من المحال، وفاحش ما أتوا به من المقال.

فأول ما نذكره من حده بعمى فكره الضال فقال: ما الفضاء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هو الهواء، المكان الذي فيه الأشياء، والموجود عندنا فهو كل ما سمي وقصد، والعدم فيستحيل أن يوجد، فلو كان الفضاء عدماً لما استحق ذكراً ولا اسماً، وأيضاً فإن لحده طرفاً ، والعدم لا يستحق وصفاً.

وإن أمسك عن السؤال ، وجحد فعل الله بالمقال.

قيل له ولا قوة إلا بالله: أخبرنا عن المعدوم هل يوصف أو يحس ، فيدرك أو يعرف؟

فإن قال: نعم، جعل العدم وجوداً واستغني بجهله عن مناظرته، وإن رجع عن ضلالته وكفره وعمايته فقال: لا يوصف العدم ولا يعرف.

قيل له: فأخبرنا هل بين الأرض والسماء مسافة أم لا؟

فإن قال: لا، كابر لبه، وأنكر عقله، و لم يناظره بعد ذلك إلا مثله.

وإن قال: نعم [بينهما] مسافة، [رجع] صاغراً.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا أعلى المكان من السماء والأرض أقريب، أم بعيد، أم ليس بقريب ولا بعيد؟

فإن جحد المعنيين أكذبته نفسه دون إكذاب غيره.

وإن قال: إنه قريب فهذا ما لا يقول به عاقل.

أيضاً فإنه مع كذبه وادعائه لقربه، قد وصفه وأقر به.

وإن قال بعيد أقر به صاغراً؛ لأن البعد موجود غير معدوم، والقرب والبعد معروفان، ولا تكون الصفة إلا لموصوف، ولا المعرفة إلا لمعروف، فإن [بقي في فريته] ومريته، وشكه وحيرته فقال: إنما البعد صفة للسماء.

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أنا لم نسألك عن بعد السماء ولا عن قربها وإنما المسألة في الأجواء.

ودليل آخر: يقال له أخبرنا عن المكان المتصل بالأرض [هل] هو المكان المتصل بالسماء أم لا غير؟ فإن قال: هو هو جعل الأرض سماء، والسماء أرضاً.

وإن قال: بل المكان المتصل بالأرض غير المكان المتصل بالسماء.

قيل له ولا قوة إلا بالله: فإذا كانا مكانين متغايرين فقد أقررت [باختلافهما] إذ كان كل واحد منهما غير صاحبه، والعدم لا يوصف بصفة ولا صفتين، ولا يكون جزءاً ولا جزئين.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن المكان المتصل بالسماء أهو متصل بها أم لا؟

فإن قال: لا ، بان كذبه، وإن قال نعم، قيل له: فقد أقررت بأنه شيء، لأن العدم لا

يوصف بالإتصال والإنفصال.

ودليل آخر: يقال له: هل الموضع المتصل بالسماء مرتفع أو متضع؟

فإن قال: متضع وليس بمرتفع كذب.

وإن قال: بل هو مرتفع شامخ بعيد.

قيل له: قد أقررت بسموه وارتفاعه، ونفيت ما سألناك عنه من اتضاعه، والعدم لا يوصف بارتفاع ولا اتضاع.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن المكان الذي سواهما أهو عندك مفترق أو مجتمع؟

فإن قال: بل مجتمع قيل له: فالعدم عندك مجتمع.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن الهواء أمسموع عندك أم مبصر؟

فإن قال: مسموع ، كذب وأقر بغير الحق.

وإن قال: بل مبصر؛ قيل له: والعدم يبصر.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن المكان أمتحرك أم ساكن؟

فإن قال: لا متحرك ولا ساكن، بان خلله؛ لأن الموجود هو ما وصف من الأشياء وقد بينا صفاته، وإذا صح وجوده لم يوجد إلا لابثاً، واللبث هو السكون والهدو والمقام.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن الفضاء أهو ضعيف أم قوي؟

فإن قال: إنه قوي كذب، لأنه يضعف عن حمل الذرة فما دونها، وإذا ضعف فالضعيف موصوف بالضعف وما وصف فهو شيء.

ودليل آخر: يقال: أخبرنا عن الجسم الموجود، والشبح المحدود، كم حدوده؟ فإن كان جاهلاً لم يجب، وإن كان عالماً أجاب، فقال: الجسم تحويه الجهات الست الفوق والتحت واليمين والشمال والخلف والأمام، فيقال له: أخبرنا عن هذه الجهات أهي شيء أم لا شيء؟

فإن قال: شيء صدق، وإن قال: لا شيء بان خلله، وصح عماه وجهله؛ لأن الجهات ست والعدم ليس بواحد ولا اثنين، ولا جهة ولا جهتين.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عما يحاد الأرض من المكان أهو عندك أسفله أم أعلاه؟

فإن قال: ليس بأسفله ولا أعلاه كذب وأحال، وكان من أجهل الجهال.

وإن قال: بل أعلاه كذب في المقال.

وإن رجع إلى الحق فقال: بل أسفل المكان محاد الأرض وأعلاه يحاد السماء، قيل له: يا سبحان الله فشيء له أسفل وأعلى يكون عندك عدماً.

وهذا الرد على من قال بإبطال صنع الله الجليل فهو مما لا تنكره العقول، وإنما هلك فيه من هلك لأنه خلق لطيف فيه من تدبير الله ما يدل على حكمة صانعه، وذلك أنه أصل حياة المخلوقين، ودليل على جميع صنع الله في العالمين، وإثبات السماوات والأرضين؛ فلو عدمه الحيوان لهلك، ولما بقي بعد عدمه، فسبحان المدبر الخالق المصور عما يقول الجاهلون، وينسب إليه الضالون.

[صفات الله ذي الجلال]

وأما الفرقتان اللتان زعمتا أنه قديم وهو الله السميع العليم، فتعالى الله عن قولهما، وتقدس عن كفرهما، بل هو الخالق البارئ المصور، الحكيم العالم المدبر، الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، السميع البصير، العليم القدير، الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوءاً أحد، فهو لا إله إلا هو، بعيد عن مشابهة المخلوقين، جليل عن مماثلة المربوبين، ليس له حد به يحد، ولا له أجزاء تعد، ولا له غاية ولا أمد، ولا له صفة من الصفات، ولا يدرك بالأوهام الجائلات، ولا يمثل بالمصنوعات، ولا يشبهها في شيء من الحالات، بل متفرد قديم حي صمد، لا يدركه أحد، ولا يحويه أمد، ولا يقع عليه عدد، ولا يبيده أبد، ولا يدركه بصر، ولا يلحقه نظر، ولا يلم به فكر، ولا يقع عليه الوهم، ولا يجوز عليه العدم، ولا تختلف عليه الهمم، ولا يغيره زمان، ولا يشغله شأن عن شان، ولا تختلف عليه الأصوات، ولا يغشاه النور ولا الظلمات، ولا يقع عليه حس، ولا ظن ولا نفس، ولا يعتريه مرية ولا شك ولا حيرة، ولا تمييز ولا فكرة، ولا يخاف الفوت، ولا يذوق الموت، ولا ينسى ولا يضمر، ولا يعتقد

ولا يفكر، ولا يوصف بالبداء، ولا الضلال ولا الهدى، ولا يسهو ولا يغفل، ولا يلهو ولا يعجل، ولا يحار ولا يجهل، ولا يحتاج إلى [مثل]، ولا يخطي ولا يزل، ولا يمل ولا يكل، ولا ينام ولا ييئس، ولا يسام ولا...، ولا يحب ولا يبغض، ولا يريد ولا يعرض، ولا يسقم ولا يمرض، ولا يأمر بالفجور، ولا يشتغل عن التدبير، ولا يقضي بالفساد، ولا يظلم العباد، ولا يأمر بالفجور، ولا المظالم ولا الشرور، وليس بمفترق ولا مجتمع، ولا متحرك ولا ساكن، ولا شبح محدود، ولا جسم معمود، ولا عدد معدود، ولا حركة ولا سكون، ولا لون ولا طعم، ولا رائحة ولا محسة، ولا طول ولا عَرْض، ولا جسم ولا عَرَض.

ولا داخل في الأشياء ملابس، ولا حايل ملامس، ولا حس ولا محس، ولا ملموس ولا لامس، ولا بذي يمين ولا شمال، ولا خلف ولا أمام، ولا فوق ولا تحت، ولا زوال ولا انتقال، ولا طباع ولا افتراق ولا اجتماع، ولا تحير ولا احتيال، ولا بذي كيد ولا احتيال، ذو العظمة والجلال، والجود والإفضال، والجلال والإكرام، والحلم والإنعام، والحكمة والسلطان، والنور والبرهان، الواحد الأزلي، القيوم العلي، الخالق للظلمات والنور، والظل والحرور، الحكيم المدبر، العليم المقدر.

عجزت عن دركه الأبصار، وضلت عنه الظنون والأفكار، و لم تحوه الأقطار، و لم يحط به الليل والنهار، و لم تعتقده القلوب والإضمار، و لم تخف عليه الأسرار، و لم يحتجب عن الأبصار بحجاب، ولا ببعد ولا اقتراب، ولا أنوار ولا ظلمات، ولا أرضين ولا سماوات.

وسنعود إلى ذكر هاتين الفرقتين المشركتين بالله المشبهتين:

[الأدلة على حدوث الهواء]

فإن سأل منهم سائل فقال: ما الدليل على حدث الهواء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه: أنا وجدناه جسماً مجتمعاً، ولا بد لكل مجموع من جامع، ومفتطر صانع.

ودليل آخر: أنا وجدناه جسماً ضعيفاً، ثم وجدنا هذه الأجسام الثقال مثبتة فيه،

فعلمنا أن الضعيف عن حمل حبة الخردل أعجز عن حمل غيرها من السماوات والأرضين، والخلق أجمعين، ولا بد له من مضعّف أضعفه، وأدق خلقه وألطفه، وإلا فما الذي جعله ضعيفاً، دون أن يكون قوياً، وما الذي جعله مواتاً دون أن يكون حياً، وما الذي جعله ساكناً دون أن يكون متحركاً مستمراً، وما الذي خالف بين حركاته وسكونه، وخالف بين أعراضه وعينه.

والقديم فيجب أن يكون مؤتلفاً، ويستحيل أن يكون مختلفاً، وإلا فما الذي خالف بين صفاته، وفرق أحواله إلى ذاته.

ودليل آخر: ومنهم مقرون بالقرآن قول الله عز وجل: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:١٠٣]، والهواء فهو يبصر ويدرك.

ودليل آخر: قول الله سبحانه: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ**﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا(١١٠)**﴾ [طه].

فقال عز وجل: لا يحيطون به، والهواء فيحاط بعلمه.

وسنذكر إن شاء الله من الدليل على حدثه ما فيه مقنع لكل مسترشد، وقطع لكل معاند ملحد؛ **فنقول ولا قوة إلا بالله:**

إن الهواء أول ما خلق الله عز وجل والله أعلم وأحكم، ثم نقول: إن الله ألبسه الظلمات، والهواء فلم يخل من الزمان طرفة عين منذ خلقه الله عز وجل، و لم يكن الزمان في حال خلق الله للهواء ليلاً ولا نهاراً، وإنما دلنا على أنه لم يخل من الزمان أنا نظرنا إلى كل مخلوق فإذا هو لا يخلو من الحركة والسكون، وإذا الحركة والسكون لا يوجدان إلا في أقل قليل الأوقات، ولا تكون الحركة إلا في وقت ولو قل وكذلك السكون، والدهر هو عرض خلقه الله مع الهواء فلم يسبق أيهما الآخر أصلاً طرفة عين فما دونها.

ثم أتت الأخبار بأن الله خلق بعده الماء والرياح والنار، ثم خلق جميع الخلائق من هذه الأصول، فانظر أي القولين أولى بالحق والصواب، وأقرب إلى شهادة الألباب، وأبعد من

الشك والإرتياب، أَقَول من قال إنه قديم بغير دليل؟ أم قول من شهدت له حِكَمُ العقول، ورجعت إلى قوله بالقبول، لصنع الواحد الحكيم الجليل، لا تجد لذلك دفعاً، ولا بعده مقنعاً، ولا تملك له أبداً مدفعاً، إلا بالمكابرة والجدال، والزور والجحد والمحال، والحيرة والمرية والضلال، فانظر إلى أولى المعنيين بالحق ، فهما غير متقايسين في الصدق، فاقبل أصدقهما، وأوضحهما دليلاً وأحقهما، وفي ذلك من الدلائل ما لا يدفعه عاقل، غير أنا نميل إلى الإختصار والإيجاز.

[حدود الهواء وتناهيه]

فإن سأل فقال: فهل له حدود يتناهى إليها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: حدوده انقطاعه وعدمه.

فإن قال: فهل له جهات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليس له جهات تحويه؛ لأن بعضه جهات لبعض فأعلاه جهة لما دونه، وأسفله جهة لما فوقه، ووسطه جهة لجوانبه.

فإن قال: فإذا قد حددته فقد غايرت بين حدوده، وإذا غايرت بين حدوده فقد جعلتها أماكناً وإذا جعلتها أماكناً فقد أبطلت نهايته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أني ذهبت إلى شيء لم تذهب إليه، واعتمدت على ما لم تعتمد عليه، وذلك أنك ظننت أني حددته بجهات غير حدوده وهذا محال؛ لأني قد نفيت ذلك في مسألتك عن الجهة، وإنما معنى قولي: له حدود أريد بذلك أن منقطعه من أسفله غير منقطع أعلاه، ومنقطع جوانبه غير وسطه، وليس لجوانبه وراء، ولا لأسفله تحت، ولا لأعلاه فوق أصلاً.

فإن تردد في حيرته فقال: فإذا كان له أعلى فكيف لا يكون له فوق، وإذا كان له أسفل فكيف لا يكون له تحت؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه لو كان له فوق لكان للفوق فوق إلى ما لا نهاية له، ولو كان لأسفله تحت لكان للتحت تحت إلى ما لا نهاية، وهذا محال.

فإن قال: ومن أين أبطل ذلك عندك؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: بطل من أجل الدلالة التي ذكرنا لك، وأما قولك إني غايرت بين حدوده، فلعمري لقد غايرت بين أسفله وأعلاه، و لم أقل لك له جهات سواه.

فإن قال: فكيف يكون شيء محدود له أسفل وأعلى ووسط وأجزاء لا جهات له ولا يحويه شيء غيره؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لا يستنكر ذلك من فعل أحكم الحاكمين، وإله العالمين، وأعز الأكرمين، وأعظم الأعظمين، وأرحم الراحمين، ورب العالمين، وفاطر السماوات والأرضين، ومسبب الخيرات، وأقدم الموجودين، ورب الأرباب، وسبب الأسباب، وأحب الأحباب، وخير الأصحاب، حرز من لا حرز له، وكنز من لا كنز له، وأنس من صحب، وخير من أحب، وأرأف معبود، وأحمد محمود، وأحصل مقصود، وأصح موجود، وأقرب مصمود، وأفضل مطلوب، وأول الأوائل، وأفضل الأفاضل.

وأفضل فاضل، وأوصل واصل، وأقدم القدماء، وأحكم الحكماء، وأعلم العلماء، وأحسن الخالقين، وخير الرازقين، أصدق الصادقين، وأسرع الحاسبين، وأقرب الأقربين، ومنجح الطالبين، ومنجي الهاربين، وأحب المحبين، وأشفع الشافعين، وأصنع الصانعين، ومفزع الفازعين، ومقنع القانعين، ومرجع الراجعين، وأسمع السامعين، وأصدق المخبرين، وخير الخابرين، ومجيب المضطرين، وخير الغافرين.

فإن رجع إلى مقالته فقال: أخبرني فهل يحويه شيء أم لا؟ وهل لأعلاه فوق من الأشياء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليس يحويه شيء أصلاً فما لأعله فوق من الأشياء.

فإن رجع إلى السؤال بجهله، ومكابرة حجة عقله، فقال: وما أنكرت من أن يكون العدم فوقه وحواليه وتحته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله الجليل: كلامك هذا متناقض عند أهل العقول؛ لأنك قلت يحويه العدم والعدم لا شيء، ولا شيء لا يحوي شيئاً، لأن الذي يحوي هو مكان، والمكان

موجود بأبين البيان، فأوجبت أن العدم شيء من الأشياء، وأنه مكان للهواء، وهذا فما لا يقول به من عقل ووعى.

فإن رجع في حيرته وتردد، وكابر معقوله وألحد، فقال: ما العدم الذي وراء الهواء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا من أحول المحال، وأفحش ما قيل له من المقال، وأفسد الفساد وأضل الضلال، لأنك سألت عن لا شيء، وليس عن العدم سؤال، ثم لم ترض أن سألت عن المحال، حتى زعمت أن للهواء وراء، وقد أبطلناه غاية الإبطال، فسؤالك عن الباطل زور وخبل، وتحقيقك للمحال ضلال وجهل، وتحكيمك للظنون لعب وهزل.

* * * * * * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين[١]

باب الرد على من جحد الله وقال بقدم الهواء وغيره من الأشياء[٢]

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم -صلوات الله عليه-: فإن سأل بعض الملحدين أهل الحيرة المتمردين وقال: ما الدليل على حدث الهواء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أنه لم يَخْلُ من الزمان طرفة عين، ووجدنا الزمان محدثاً وهو حينئذ سكون الهواء، فعلمنا أن ما لم ينفك من المحدث و لم يوجد إلا بوجوده أن سبيله في الحدث كسبيله.

فإن قيل: وما الدليل على حدث الزمان؟

---

(١)- زيادة في (ب).

(٢)- من هنا إلى باب الدلالة على حدث الأجسام ناقص في (ب) وزيادة من (أ).

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أن كل ساعة لها أول وآخر ، وكل ليلة ، وكذلك كل يوم وشهر ، فكلما حدثت ساعة انقطعت ، فهذا دليل على حدث ما مضى من الزمان فقد انقطع وفني ، وما وقع عليه الانقطاع والفناء فقد تناهى ، بأبين البيـــان ، وأوضح البرهان.

فإن قال: **وما أنكرت من الزمان أن يكون الزمان الذي هو سكون الهواء قديمـــاً لم يزل على ما نرى ساعة تبقى بعد ساعة وساعة قبل ساعة إلى ما لا نهاية له؟**

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن قولك هذا لا يخلو من أحد وجهين؛ إما أن تكون عنيت به الزمان الذي انقطع ومضى وتصرم وفني، وإما أن تكون عنيت غيره.

فإن كنت عنيت غيره؛ فليس كلامنا إلا فيه، وإن كنت عنيته فكيف لا يتناهى عند من عقل من أهل النهى شيء قد وقع عليه الانقطاع والفناء، وما انقطع وفني فقد تناهى.

ودليل آخر: إما أن تكون عنيت بقولك: كل ما فني ومضى من الزمان الـــذي هـــو سكون الهواء، وإما أن تكون عنيت ما بقي منه الآن.

فإن كنتَ تريد ما مضى منه وغبر فقد أجبتَ نفسك من حيث لم تشعر.

وإن كنت عنيت ما بقي من الدهور ، وما هو يمر على الخلق ويدور، من الســـاعات والأيام والليالي والشهور، فها هو اليوم تمضي ساعة حادثة ويُحْدث غيرهـــا ، فكلهـــا حدثت ساعة ، فثبتت ساعة وتناهت، فهذا دليل على ما مضى من سكون الهـــواء، ولا يزال ذلك أبداً بإبقاء الله تبارك وتعالى، وسنزيد إن شاء الله بياناً ونوضح لك من ذلـــك هدىً وبرهاناً، ونسأل الله أن يوفقنا.

فنقول إن شاء الله: ما تقول أيها السائل عن حدث الهواء أهو في ذلك عندك ســـاكن أم لا؟

فإن قال: ليس بساكن كابر عقله، واستغني عن مناكرته بجهله ، بأن الهواء لابث غير زائل ، لا يمتنع من لبثه عاقل، ولا يكابر فيه عالم ولا جاهل.

وإن أقر بسكونه قيل له: أخبرنا أكله ساكن أم لا؟ فإن قال: إلا بعضه، كذب كذبـــاً

بيناً، وإن قال: بل هو ساكن كله؛ فللكل نهاية وغاية لا تخلو من السكون، والسكون يدل على تناهيه وتحديده ، إذ لا يخلو منه ، ألا ترى أن الشيء إذا لم يخل من صفته فذلك دليل على حدوده ، كمثل اللون والحركة والسكون والمحبة وغيرهنّ من الأعراض ، والكلية والأبعاض.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون الساكن ساكناً إلى ما لا نهاية له؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا محال باطل، لا يقبله من الناس عاقل ، لأن ما صح حدثه فهو كله محدث، ثم نقضت قولك بقولك: لا نهاية له؛ لأن الكل دليل على أنه لم يبق منه شيء حتى حدث بعد عدمه ، فبطل ما ادعيت من قدمه.

ودليل آخر: أن العقل لا يقع إلا على الكل والبعض ، والطول والعرض، ولا يخلو الهواء من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون ساكناً كله، وإما أن يكون بعضه ساكناً وبعضه متحركاً، وإما أن يكون لا ساكناً ولا متحركاً.

فإن قلت: إنه لا ساكن ولا متحرك جحدته، وأبطلت ما بالقدم وصفته؛ بل إن كنت من المشبهة فقد عبَدْته.

وإن قلت: بعضه ساكن وبعضه متحرك؛ فقد حددته وناهيته، وقسمته وجزيته، وأجملته وبعضته؛ لأنه إن كان على ما وصفت فهو على ضربين وجزئين موصوفين متناهيين محدودين ، وحالين مختلفين متغايرين معروفين.

فإن قلت: إنه ساكن كله فقد أقررت صاغراً؛ إذ وصفته بالسكون فحددته إذ لم يبقِ منه السكون شيئاً حين جرى عليه، و لم يذر منه قليلاً ولا كثيراً حتى وصل إليه؛ فانظر أي القولين أولى بالحق.

باب الدلالة على حدث الأجسام[1]

[1] - من هنا إلى آخر كتاب المعجز تتفق فيه (أ)، و(ب).

ودليل آخر: يقال لمن قال بقدم الأجسام: أخبرنا ما أعظم الأجسام وأجلها؟ فلا بد أن يقول: الأرض والسماء.

فيقال له: أهما في الهواء أم لا؟ [فإن][1] قال: لا، كذب، وإن أقر بذلك صدق، ووجد الأجسام لا تنفك من الهواء، وما لم ينفك من المحدث و لم يوجد إلا بوجوده فهو مثله مكون بكونه.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون الأرض منحدرة سفلاً إلى ما لا يتناهى، وكذلك السماء مصعدة.

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذا محال باطل فاسد، وذلك أنهما مخلوقتان.

فإن قال: وما الدليل على ما ادعيت من حدثهما؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثهما [أنهما][2] لم تنفكا قط من الهواء الذي بينهما، وقد أوضحنا حدث الهواء فيما تقدم من كلامنا، وما لم ينفك من المحدث و لم يكن قبله فسبيله في الحدث سبيله.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون الهواء حدث بعدهما ، و لم يكن معهما ولا قبلهما، ولا هو في القدم مثلهما؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن الأرض لم تخل من التحت، و لم تخل[3] من التباعد والتباين ، و لم تخل السماء من الإرتفاع ، و لم تخل الأرض من الإتضاع، وفوق الأرض فهو الهواء، وكذلك هو تحت السماء ، وهي المسافة بينهما، وهو سبب تباعدهما، وهو الفرق بينهما.

وأيضاً فإنك مقر بأزلية تباينهما، وهذا محال لما بيّنا من كونهما ووجودهما بوجود

---

(١)- زيادة في (ب).

(٢)- ساقط من (ب).

(٣)- و لم يخلوا جميعاً.

هذا الفضاء.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكونا في حال أزليتهما غير مفترقين ثم افترقا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه حجة عليك لا لك، احتججت بها على نفسك ؛ لأن حدث الإفتراق دليل على المفرق، وافتراقهما بعد اجتماعهما دليل على مفرقهما بعد جمعه، وتنقلهما دليل على صنعه.

ودليل آخر: أنك قلت: افترقتا والافتراق لا يكون إلا في مكان كما وصفنا، وكذلك الإجتماع، ووجود المكان دليل على حدثهما، إذ لم يخل من هذا المكان المحدث الذي بينا حدثه فيما مضى من كلامنا، وإذا لم يسبقه المحدَث -أعني الهواء- و لم يكونا قبلهما، فسبيلهما في الحدث سبيله.

ودليل آخر: أنك قلت: افترقتا والافتراق لا يكون إلا بعد الاجتماع، وإذا كان للاجتماع آخِر فله أول، ويستحيل آخر بلا أول.

ودليل آخر[1]: ألا ترى إليهما إذا كانا لم يزالا مجتمعتين[2] ثم افترقتا فقد بطل ما مضى من كثرة سكونهما واجتماعهما.

ولا يخلو هذا الباطل الذي بطل (وهو سكونهما من أن يكون بطل)[3] كله أو بطل بعضه.

فإن قلت: بطل بعضه؛ فهذا محال، لأنك أقررت بحركة افتراقهما بعد سكون اجتماعهما، وإذا تحركتا فقد بطل كلما مضى من سكونهما[4]، وإذا بطل جميع السكون والساعات الحادثة فقد صح أن لهما عدداً، وإذا صح بأن للساعات عدداً محدثاً وصح بعد

---

[1]- زيادة في (ب).

[2]- في (أ): مختلفتين والصحيح ما في الأصل.

[3]- ما بين القوسين ساقط في (ب).

[4]- في (ب): من كثرة سكونهما.

حدوثه انقطاع جميعه، والأرض والسماء [عندك][(١)] لم يسبقا سكونهما هذا الذي ذكرنا حدث ساعاته وانقطاعها بعد حدوثها.

[احتياج الأجسام في بقائها إلى الأوقات]

ودليل آخر: أن جميع الأجسام من الأرض والسماء وغيرهما من الرياح والماء وجميع ما خلق الله سبحانه وبرى، ودبر وذرى، لا يوجد إلا في وقت وساعات، لأن الأجسام لا تنفك من السكون والحركات، وكل متحرك أو ساكن لا ينفك من أقل قليل الأوقات، وما لم ينفك من الوقت والزمان، فهو مثله في الحدث والبرهان؛ لأنا قد أوضحنا [لك][(٢)] حدث الأزمان، فانظر كل علة من العلل، وعرض من الأعراض، فلن تجده إلا في جسم من الأجسام، وما لم يوجد إلا بوجود الجسم فلم يسبق الأجسام، وكيف يسبق ما لم يوجد إلا فيه، ولا يستقيم إلا به وعليه، وما لولا هو لما وجد أبد الأبد، ولما رآه من الخلق أحد، مثل اللون لا يوجد أبداً إلا في جسم، فإذا صح حدث الجسم المنفرد بذاته، فعرضه الذي لا يقوم بنفسه، ولا يوجد إلا متعلقاً به، أجدر أن يكون محدثاً، وأحرى بأن يكون مصنوعاً مدبراً.

ثم انظر إذا أردت أن تعرف حدث جميع الأشياء فلن تجده إن شاء الله إلا على ما ذكرنا متحركاً أو ساكناً، ثم انظر إلى الحركة والسكون فلن تجدهما أبداً إلا في وقت ولو قل الوقت.

ثم انظر [إلى حدث الوقت ثم انظر إلى انقطاعه، ثم فرق بين][(٣)] يومك وأمسك، وافرق بين ما تأمل من البقاء وبين الماضي السالف من عمرك الفائت الذي قد مضى، فإنك تجد كل يوم من أيامك السالفة الماضية الذاهبة من عمرك الفانية قد تضمنها الفناء،

---

(١)- ساقط في (ب).

(٢)- زيادة في (ب).

(٣)- زيادة في (ب).

وكذلك تضمن غيرها.

ثم انظر أيضاً أوقع عليها كلها أم لا؟ فإنك إن نظرت وجدت كل ساعة من الساعات والأزمنة الماضية الخالية لم ينقطع آخرها إلا بعد انقطاع أولها، ولم يحدث آخرها إلا بعد حدوث أولها، وكل أول من الزمان حدث وصح حدثه فلم يحدث آخره حتى في أوله، وما لم ينفك من الحدث والفناء فقد تناهى منه كل ما مضى، وبلغ غايته وانقضى، فلم يوجد الزمان إلا على هذين الحالين المتناهيين، الحدوث والفناء، وما صح حدثه ومبتدأه وصح فناه ومنتهاه، ولم توجد الأجسام جميعاً إلا بوجوده فسبيلهما في الحدث كسبيله.

ودليل آخر: لما نظرنا إلى الزمان والهواء فأمكن في المعقول أن ينفردا من الأجسام، علمنا إذ ذلك أنهما كانا قبل الأشياء؛ ثم نظرنا إلى الأشياء فإذا هي لا تنفك منهما، ولا يجوز في المعقول أن تكون قبلهما، فعلمنا أن الأشياء محتاجة إليهما مبنية في الشاهد عليهما.

فلما علمنا أن الأشياء لم تكن قبلهما ولم توجد إلا بوجودهما رجعنا إلى الطلب لحدوثهما والإستدلال على صنع الله فيهما، فنظرنا إلى أجلهما وأوضحهما وهو الهواء هل ينفك طرفة عين أو أقل منها من الزمان؟ فإذا هو لا ينفك منه أصلاً فرجعنا نطلب الدليل على حدث هذا الذي لا ينفك منه شيء من الأشياء ، فوجدنا والحمد لله في ذلك ما كفانا، ووضح لنا فشفانا، وهو ما ذكرنا، ولولا خشية التطويل والإكثار ، لشرحنا من ذلك ما لا يدفعه عاقل أبداً بإنكار.

ثم علمنا أن الله خلقهما جميعاً معاً إذ لم ينفك من الزمان الهواء، ثم نظرنا إلى الزمان فإذا هو عرض من أجل الأعراض، دلنا الله به على حدوث جميع الأجسام، وإبطال دعاوي الطغام، أهل التَكَمُّه في الإظلام، وأشباه عجم الأنعام.

ولما نظرنا إلى هذا الغرض الجليل لم يكن بد له من جسم، فإذاً جسمه هذا المكان ، فيا لمن قال بقدم الطينة الويل، كيف تكون قديمة مع ما بينا من صنع الله الجليل.

فانظر أيها المسترشد إلى ما ذكرنا، فلن تجده بخلاف ما قلنا، ولن يقدر أحد من الملحدين على فساد ما به دنّا، وعلى الله اعتمدنا، وهو حسبنا وولينا، وخالقنا ومصورنا، وإلهنا ومدبرنا، ومخترعنا ومقدرنا، ورازقنا ومعمرنا، وآمرنا وزاجرنا، وواعدنا وموعدنا، وموفقنا ومسددنا، ومميتنا ومحيينا، وممرضنا وشافينا، ومطعمنا وساقينا، والذي نرجوا أن يغفر لنا ذنوبنا، ويعفو عن هفواتنا، ويتجاوز عن سيئاتنا وقبيح فعالنا، وعظيم جرمنا، وسيئ أعمالنا، وأن يبارك لنا في قصر أعمارنا، ونزع أرواحنا من أجسادنا، وألا يخرج أنفسنا إلا من بعد رضائه عنا في سبيله بعد اجتهادنا، ونسأله أن يتفضل بذلك علينا وأن يجعل آخر محنتنا في أعظم ما كلفنا وأزكى ما به أمرنا، وأن يجعل عند ذلك ذكره آخر كلامنا، واليقين به آخر[1] اعتقادنا، والبذل لأجسادنا في سبيله، والغضب له آخر أعمالنا، ولقاه آخر آمالنا، وثوابه آخر سرورنا، وألم الموت آخر محنتنا، والأحداث أول راحتنا، والطاعة أكبر همنا، والعداوة لأعدائه آخر حقدنا، والموالاة لأوليائه آخر ودّنا، وأن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يجعلنا من رفاق نبيه وأحبائه وجيرانه وأوليائه، وأن ينجينا من عذابه وأن يوفقنا لثوابه، فلا قوة لنا إلا به، فما هي إلا مدة سنسأل فيها عن النعيم إن لم نجتهد في الطلب غاية الإجتهاد، ونشمر قبل رحلتنا وطلب الزاد.

فيا عجباً لمن يشتغل عما له خُلِق بالدنيا، وقد وعد بالموت والفناء، ووعد بعد ذلك بالثواب الجزيل إن عمل، أو بالعقاب الجليل إن غفل.

ويا عجباً كيف آثر ما هو عنه زائل على ما هو أحد يوميه إليه راحل، ويا عجباً له كيف يطيل أمله وهو ينتظر دون ذلك أجله! ويا عجباً له كيف يعمر دار غيره ويهدم داره! ويا عجباً له كيف يُحَكِّم على عقله هواه، ويؤثر على آخرته دنياه! ويا عجباً له كيف يشيد محل رحلته، ويترك محل إقامته! ويا عجباً له كيف يصلح مال غيره ويفسد

[1] في (ب): خاتم.

ماله! ويا عجباً له كيف يجمع ما ينفع غيره ويترك ما ينفعه! ويا عجباً له كيف يجمع ما هو عنه هالك ، وما هو لغيره تارك!!

وسنعود إلى بيان صنع الله وحكمته ، [وما هو أكثر من الأدلة برحمته][1] **فنقول:**

[الأدلة على حدوث السماوات والأرض]

إن أعظم الدلائل على الله سبحانه، وعز عن كل شأن شأنه، ما فطر من الأرضين والسماوات العلا، وصنع منهما تبارك وتعالى.

فإن سأل سائل عن بيان صنع الله فيهما وتدبيره وحكمته وتقديره؟

فجوابنا له في ذلك وبالله نستعين: ما شاهدنا من إثبات السماوات بلا عمد، وإثبات الأرضين، ففي ذلك أدل الدلائل على رب العالمين.

ودليل آخر: أنا نظرنا إليهما فإذا هما موصولتان مجتمعتان، ولا بد لكل توصيل من مُوَصِّل، ولا بد لكل تفصيل من مُفَصِّل، ولا بد لكل مجموع من جامع، ولكل مصنوع محدَث من صانع، وهو الله رب العالمين.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون الأرض لا نهاية لها، وكذلك السماء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن ما صح حدثه فقد صح منتهاه، ولا بد لكل مخلوق من غاية يتناهى إليها، وصفة لا يوجد إلا عليها، إذ لا بد للمخلوق من تحديد محدد والإحاطة بعلمه، ولا بد له من منقطع يدل على قاطعه، وحدود تدل على محدده وصانعه[2]، وسنبين من ذلك إن شاء الله تعالى طرفاً نكتفي به عن التطويل من صنع الله العظيم الجليل.

وكذلك أنا نظرنا إلى الأرض فإذا هي مختلفة الألوان والأقدار؛ فعلمنا أن لها صانعاً خالقاً باين أجناسها ، ولو كانت قديمة لاتفقت ولما تفاوتت ولا اختلفت؛ لأن القديم لا

---

(1)- زيادة في (أ).

(2)- ناقص من (ب).

فرق بينه في حال من الأحوال، والمحدث فقد فرق بينه ذو الجلال.

والدليل[١] على نهاية جميع المصنوعات من الأهوية والأرض والسماوات: أنها لا تخلو من أحد وجهين؛ إما أن يكون صانعها قد فرغ من صنعتها وقطعها، وإما أن تكون ناقصة بعدما ابتدعها.

فإن كان الصانع قد أتم صُنْعَه ، وفرغ من العالم وقَطْعَه، فقد صح تناهيه لانقطاعه، وحدده الصانع بعد ابتداعه.

وإن كان هذا العالم محتاجاً إلى التمام فناقصه ذو الجلال والإكرام، وما كان ناقصاً عن الكمال فهو مقطوع، وما كان له مُنقَطَعٌ فهو مصنوع، والله محدثه وصانعه، ومحدده وقاطعه.

فإن قال: فكيف تَثْبُتُ الأرضُ على ثقلها بغير عمد يعمدها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: قد قيل في ذلك: إنها ثبتت من قِبَل الإعتدال، ثم هذا نقول[٢] من أحول المحال؛ لأنا نجد ما كان ثقيلاً لا يثبت بغير عمد وإن كان معتدلاً.

وقيل أيضاً: إنها على لجج البحار، ويستحيل كون الأرض على الأنهار، لما طبعت عليه من الإنحدار، وقلة اللبث والقرار.

وقيل: إنها لم تزل تهوي بما عليها من أجل قوّتها وثقلها.

وهذا من أضعف المقال، وهو قول الزنادقة الجهال، الكفرة الفجرة الضلال، أنها لم تزل تهوي بمن عليها، وهذا مما لا يقول[٣] به أحد يعقل ولا يعي، ولا يتكلم بهذا إلا من سلب عقله، وعظم موته وجهله، وحل هلاكه وخبله؛ لأنها لو كانت تحرك على عظمها وجلتها لهلك من على ظهرها، ولما فرق بين الحركة والسكون، إذ كانت حركتها لا

---

[١]- في (ب): ودليل آخر.

[٢]- في (ب): وهذا القول من أحول المحال.

[٣]- في (ب): هذا فما لا يقول به أحد.

ترى فجعلوا السكون حركة، والحركة سكوناً، والظنون عقولاً، والعقول ظنوناً، فزادهم الله عمىً وخبلاً وضلالة وغيّاً.

فيا لهم الويل الطويل، والعذاب والخزي الجليل، أما علموا -لا علمهم الله رشداً، ولا وفقهم لخير أبداً- أن الحركة هي الزوال، وأن السكون هو اللبث، وشتان بين الهدوء والجمود، والحركة والجثة، أوَما علموا أن حقيقة الحركة هي زوال الجسم واختفاقه، وحقيقة السكون تخلف الجسم ولبثه واعتقابه؟

أوَما علموا أيضاً أن الثقيل كلما ثقل كان أعظم لزواله، وأسرع لهويه وانتقاله، فقد رأينا بعقولنا وشاهدنا بأبصارنا الحجر أسرع هوياً في الجو من الطير والتراب، ورأينا التراب أسرع انحداراً من الريش، فكيف لحقت الحجر الأرض والأرض أثقل منها، والثقيل أسرع مضياً وانحداراً ، وأقل لبثاً وقراراً ، وأجدر بالسقوط والإنحدار، وأبعد من اللبث والقرار.

ثم نظرنا إلى الريشة فإذا هي أخف الأشياء ورأيناها تلحق الأرض على ضعفها وقلة انحدارها وهويها.

ودليل آخر: أن الجسم إذا هوى سفلاً أو من السفل علواً أو من غيرهما من الجهات لا يخلو في حركته من أن يكون قطع أماكناً متناهية، أو قطع أماكناً لا نهاية لها، أو لم يقطع [بحركته أماكناً][1].

فإن قلت: إنه لم يقطع أماكناً؛ جعلته ساكناً لأن المتحرك لا يتحرك إلا في مكان ولا بد لتحركه من المكان أن][2] يقطع مسافة متناهية.

وإن قلت: إنه قطع أماكناً لا نهاية لها فهذا محال، لأن قولك قطع أماكناً يوجب نهاية الأماكن، لأن القطع جرى عليها، وإذا قطعت فقد تناهى قاطعها.

---

(١)- زيادة في (أ).

(٢)- زيادة في (ب).

ثم قولك: لا نهاية نقض لإقرارك الأول وهو قولك في القطع، وإذا صح تناهي الأماكن بقطع الجسم لها فقد صح أيضاً تناهي حركته، وغايتها، إذ لا توجد الحركة إلا في المكان المقطوع.

وإن رجعت إلى الحق فقلت: بل قطع أماكناً متناهية، علمت أنه إن شاء الله على ما وصفنا، وأنه بأيقن اليقين على ما قلنا.

ألا ترى أن الأرض والرياح إذا كانتا بزعمهم لم تزل حركتهما تقطع مكاناً بعد مكان، لا يخلوان من المكان طرفة عين ولا أقل منها، وإذا كانتا غير خاليتين من المكان و لم توجد حركتهما إلا فيه لم يخلو من أن تكونا قطعتاه أو لم تقطعاه.

فإن لم يجز عليه القطع منهما فقد عدمت حركتهما وصح سكونهما، لأن الأرض بزعمهم إذا هوت فلا بد أن تقطع بهويها ما عبرت، وإذا صح أنها لا توجد إلا في الآخر، أو لا تقطع إلا ما أتت عليه من الهواء، أو كانت حركتها لا توجد إلا في المقطوع عند سيرها فقد صح تناهي المكان لقطعها له ، وصح نهايته إذ لم تنفك من المكان المعبور، و لم توجد إلا بوجوده عند الهواء والمسير، وفي ذلك والحمد لله من الأدلة والبراهين أكثر مما ذكرنا من التبيين، فما طلبنا[1] من ذلك شيئاً يسيراً ، إلا وجدنا بمنّ الله كثيراً.

وإذا صح تناهي الأرض بالأدلة الواضحة وقد صح أنها لم تثبت على ثقلها إلا بلطف مدبرها وخالقها، ومصورها وجاعلها ومخترعها، ومفتطرها وصانعها، والقول في السماء كالقول في الأرض عندنا فنسأل الله أن يوفقنا وأن يغفر ذنوبنا.

[المعارف نظرية وليست ضرورية]

والمعارف عندنا من أراد طريق النجاة فليست إلا بالتسليم للمعقول، وجهاد النفس بالقبول[2]، والاعتماد بأمر علام الغيوب، وإكذاب خواطر القلوب، لأن العاقل إذا ورد

---

(١)ـــ في (ب): فما بينا.

(٢)ـــ في (ب): بالعقول.

عليه شيئان أحدهما ظن والآخر يقين وجب عليه قبول أصدقهما، وإبطال أفسدهما بأحقهما، فإن الحق لا يشبه المحال، والهدى لا يماثل الضلال، والعلم لا يقاس بالجهل، والظن لا يمثل بالعقل، والصحة لا توازن السقم، والدليل أولى من الوهم، وصحة الخبرة أولى من وساوس الحيرة.

فيجب على المتعبد أن ينظر الأمر من المتناهيين المختلفين، المتغايرين المتباعدين المتنافرين، فليستمع قولهما، وينظر دلالتهما، ثم ينظر اختلافهما فلن يشقيه ضدان أبداً، فليأخذ بأوضحهما دليلاً، وأنورهما سبيلاً، ويجاهد نفسه على قبوله أشد الجهاد، ويحرس قلبه من الفساد، ولا يبرح صابراً مصطبراً، متيقضاً من السهو متفكراً، فلن يشتبه الحق والباطل عنده إن عقل، ولن يهدى إلى الرشد إن غفل.

فرحم الله عبداً نظر لنفسه في أوان المهل، قبل حضور ما وعد به من الأجل، فلعمري لو لم يكن لنا من النظر إلا ما في أنفسنا من الآيات والعبر، لكان لنا في ذلك كافية، وأدلة واضحة شافية، وبراهين جليلة باهرة، وآيات عظيمة قاهرة، وأنوار مبصرة زاهرة، من خلق الذكر والأنثى من نطفة من مني تمنى، لا سمع فيها ولا بصر، ولا عقل ولا شعر ولا بشر، ولا حياة ولا حكمة، ولا إرادة ولا همة؛ فبينما هو كذلك إذ هو بشر سوي، حكيم عالم عاقل حي سميع بصير قوي، أجزاء محكمة متقنة مفصلة، وآيات محبوكة متسقة موصلة، ومفاصل مجموعة معتملة، وحكمة بالغة معتمدة، مأسورة مشدودة مؤكدة، تدل على حكمة صانعها، وتشهد بالفطرة لفاطرها، وتبين لناظرها، لا يمتنع عاقل حكيم من التصديق بأن تأليفها بعد العدم يدل على مؤلفها، وتصريف فطرتها دليل على مصرفها، وإتقان ما لم يكن متقناً منها دليل على متقنها، وتفصيل أجزائها دليل على مفصلها، وتوصيل آلائها دليل على موصّلها.

فكفى لعمري بوجودها بعد عدمها دليلاً على صانعها، وكفى بصنع أدواتها دليلاً على علم الصانع بها، وكفى بوجود الأرزاق دليلاً على الرزاق الواحد الخلاق، وكفى بما نشاهد من النعم المنزلة من السماء المبسوطة لنا ولأنعامنا دليلاً على المنعم علينا، وكفى بما

نشاهد من الإحسان في الأرزاق دليلاً على المحسن علينا.

فلعمري لفي أقل من هذا ما دل على الله تبارك وتعالى، فيا لها نعماً عظمت، وأياديــاً جلت وجسمت، ويا لها فضائل كثرت وزادت على كل من ند، والحمــد لله الواحــد الحميد، العدل الخالق المجيد، فلن نذكر من حكمته إلا قليلاً، فسبحان الله بكرة وأصيلاً، والحمد لله كثيراً ، والله أكبر كبيراً.

ولا تكون نعمة صح حدثها إلا من منعم، ولا كرم من بعد العدم إلا من متكرم، ولا حكمة بالغة إلا من حكيم، كما لا يكون العلم إلا من عليم، ولا الحلم في الشاهد إلا من حليم، ولا يجعل الشيء للشيء والمعنى للمعنى إلا عالم بفاقة المخلوق إلى ما جعل وبنى.

[الحكمة في خلق الخلق وتسهيل أرزاقهم على حاجاتهم]

ألا ترى إلى ما بث الله من الخلق وما بسط لهم بعد خلقهم من الرزق الذي لولا هــو لهلكوا ودمروا، ولما تناسلوا ولا كثروا، ولما ثم بقاء ولا صبروا، فلعلمه بفاقتهم رزقهــم، ولإنفاذ الحكمة خلقهم، ولحسن التدبير فطرهم، وبالطاعة والرشد أمرهم، وعن الفواحش زجرهم، وللكفر حذرهم، وبالثواب وعدهم، وبالعقاب على المعصية أوعدهم؛ فسبحان من لا تحصى آياته، ولا تنقطع أبداً دلالاته، فلو لم يكن لنا من الآيات إلا ما ذكرنا مــن صنع الله في الحيوانات لكان ذلك عليه دليلاً، ولكان علماً عظيماً جليلاً، مــن النطــف الحقيرة خلائقاً مبثوثة كثيرة لا يحصيها إلا خالقها ومبتدعها ورازقها، وما جعــل مــن ذكورها وإناثها لتكثير نسلها وإحداثها، ثم جعل في الذكور من الشهوة للإناث ما جعلها سبباً للجعل والإحداث، وجعل النسل في أصلاب الذكور، لتمام الحكمة والتدبير.

ثم جعل لذلك النسل مسالكاً إلى أوصال الإناث فاتصل بإذن موصله، وانفصل مــن الأصلاب بمشيئة الله رب الأرباب، فأحسن الصور في الأرحام بإكمالها بعد أخذها مــن الأصلاب، وإنزالها، ثم أخرجها من بطون الأمهات، وركبها للأغذية واللذات، فجعــل لتلك النسول قبل إخراجها أغذية لعلمه بفاقتها، وجعل لتلك الأغذية من ألبان أمهاتهــا المركبة لهم في أجسادها، لعلمه بضعف الأطفال عن غيرها مما تغتذي به بعــد كبرهــا،

فجعل غذاء الصغير بلطفه غير غذاء الكبير لما علم من طفوليته وضعفه، ثم ألهم هذه النسول رضع أغذيتها ليتم بذلك ما أراد من حياتها.

فيا عجباً لأطفال البهائم العجم التي لا تعي ولا تعقل كباراً فكيف إلا صغاراً، كيف اهتدت لأماكن أغذيتها ! أجل إن ذلك لمن غيرها لضعفها وصغرها؛ حتى كأن قد علمت ذلك علماً يقيناً، أو جبرت عليه؛ أو قيدت قوداً إليه، ولما علم الله عز وجل ما ركب من خلقه وجبل، وما نزل من الأرزاق وجعل، علم أن تلك الأغذية لا تتم إلا بالوصول إلى الأجساد، ومباشرة البطون والأكباد، فجعل سبحانه لذلك مسلكاً فأوصله، وركبه لعلمه بفاقتهم وجعله.

ثم بسط الرزق ونزله؛ فكم من مخلوق عجيب الخلقة خلقه، ومرزوق لا يحمل رِزْقَه رَزَقَه، فالحمد لله الذي تفضل علينا بنشأته وخلقه، وبسط لنا الكفاية من رزقه.

ثم علم عز وجل بما خلق وفطر، وجعل من الحكمة ودبر، وعلم بفاقة المخلوق إلى مخارج الأغذية التي لولا مخارجها لما لبث المخلوق حياً، ولا بقي من الدهر شيئاً إلا وقتاً يسيراً، ثم تصير نعمته عليه تهلكة وتدميراً، فجعل سبحانه لما علم بمولجه مخارجاً لفاقة المخلوق إلى مخارجه.

[حجة العقل والرسول على المتعبدين]

ثم جعل للمتعبدين عقولاً لتكون لهم عليه دليلاً؛ فسبحان من دلنا إلى معرفته، وجعل لنا العقول برحمته، ثم جعل لنا حواساً خمساً، عياناً وسمعاً وذوقاً وشماً ولمساً؛ فجعل العيان لدَرَكِ الهيئات، والأسماع لدرك الأصوات، والذوق لدرك المطعومات، والشم للروائح المختلفات من الخبائث والطيبات، وجعل اللمس لدرك أعراض المجسمات ، من الحر والبرد واللين والخشونات، وجعل الأجسام وما فيها من المفاصل للحركات، ودليلاً على حكمة فاطر السماوات، وجعل العقول لتمييز الأمور، ومعرفة الخيرات والشرور.

ثم لم يكلنا إلى ذلك دون أن أرسل إلينا الرسل والنبيين، مذكرين لنا من الغفلة ومخبرين لما خلقنا له من النعيم والفضل من الله والكرم والتعبد للفرق بين المطيعين

والعاصين إذ لم يكن من حكمة الحكيم أن يساوي بين المحسنين والمسيئين.

فيا خالق الخلق ويا باسط الرزق أسألك أن تجعل آخر حياتي وحضور وفاتي على أكمل ما يكون من طاعتك واتباع مرضاتك، والغضب لك، حتى تبلغني بفضلك ما له خلقتني، (وأن تختار لي بعلمك وتقبضني على أيقن يقيني)[١] وتوفاني يا مولاي على شهادة ألا إله إلا أنت الحق اليقين، الصمد الواحد المبين، وأن ترزقني الحياة ما كانت الحياة خيراً لي، وأن تمنن علي بالوفاة في وقت طلبتي للنجاة وسلوك سبيل الهداية حتى تتم نعمتك علي، عندي ولَدَيَّ، فقد علمتَ يا مولاي ندمي على ما هو من غفلتي، فاسألك يا مولاي سؤال من عرفك، واستدل عليك فأيقن بك، أن تقيلني ما كان من عثرتي، وأن تغفر لي ما علمت من خطيئتي، وأن تجاوز عن زلتي فها أنا يا مولاي مستقيل إليك، ومتوكل في كل أموري عليك، طارح لنفسي في يديك؛ فإن عفوت يا مولاي وغفرت، وعدت بفضلك فقد نجوت، وإن لم تغفر لي ما سلف، فَمَن غَيرُك يا مولاي يغفر لي، وإن لم تهدني فمن غيرك يهدني أو يوفقني أو يرشدني، وإن لم تنظر إلي، وإن لم تجب دعائي فمن أدعو، وإن لم تنجني فكيف أنجو، وإن لم أرجك فمن أرجو، وإن لم أحبك فمن أحب، وإن لم أطلب منك فمن أطلب، وإن لم أهرب إليك فإلى من أهرب، وصلى الله على محمد [النبي الطاهر البر الزكي وعلى أهل بيته الأبرار الأخيار الطيبين][٢] وسلم تسليماً.

قال في النسخة (ب): بخط مالكه الفقير إلى ربه الحسين بن علي بن صلاح أعانه الله، حرر آخر شهر رجب سنة (١٠٣٢هـ).

* * * * * *

---

(١)- ما بين القوسين ساقط من (ب).

(٢)- زيادة في (ب).

كتاب الرد على عبدة النجوم

باب الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حسبي الله وكفى ونعم الوكيل.

والحمد لله الذي ابتدأنا بالهدى، واستنقذنا من الضلالة والردى، نحمده على ما كثر من الدلائل عليه، والدواعي التي دعت أولياءه إليه، فمن استدل بها عليه نَظَرَه، ومن قصر عن فهمها لم يره، فأي دلائل على الله ما أدلها، وأعظم قدرها وأجلها، لقد بهرت عقل من عرفها من المؤمنين، ودلت من أيقن بالله من المستدلين، واضطرت العقول إلى رب العالمين، فدلائل الله عليه منيرة لا تطفى، وشواهد صنعه ظاهرة لا تخفى، تدل من فكر في صنع الله وتدبيره، ومعجز فطرته وتقديره، ولا يكفر[1] بدلائل الله وتبصيره من اشتغل عن وعظه وتذكيره ، وأقبل على لهوه وفجوره، وأنى يظفر بدلائل الله من أقبل على اللهو والمحال، وقل خوفه من الكبير المتعال.

كلا لن يظفر[2] بذلك من اشتغل عن آخرته بدنياه، وصد عن الله واتبع هواه، ولن يكون ذلك بالله من العارفين، ولا إليه من الهادين، ولا عنده من المقبولين، ومن لم يكن لله من العارفين لم يكن أبداً من المطيعين، ومن قصد إلى دين الله ورغب في طاعته وهو مختار لترك طلب الأدلة إلى معرفته ، ورضي بجهله وغفلته ، كان داخلاً في الجهل بمعصيته.

ومن كان بالله جاهلاً، وعن دلائله غافلاً، لم يكن عنده من المؤمنين، ولا به من الموقنين، إذ رضي بالجهل والنقصان، واشتغل عن المعرفة والإيقان، فهو في صفات الله متحير جاهل، وعن الدلائل عليه مستوهل ذاهل، إن عسف النظر في ذلك ارتطم في الضلال، وإن رضي بجهله فهو من أجهل الجهّال، لا يملك لقلبه جنة من الشيطان، ولا يؤمن عليه الدخول في محظور ولا عصيان، وإن عبد الله عبده بغير خشوع ولا إيمان، وإن

---

(١)- في (ب): ولا يظفر.

(٢)- في (ب): كلا لن يكلفوا بذلك.